إلى القدس على خُطا النبي

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ١٧/٧/٢٠٠٩م

نحن في رحاب الذكرى العظيمة، ذكرى إسراء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ومعراجه، التي قال الله تبارك وتعالى فيها في محكم آياته: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الإسراء: ١].

نعم، سار سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى القدس، ومنها كان معراجه إلى السماء، فكانت آية عظيمة ودلالة حكيمة.

هذه الآية التي نقرؤها في سورة تسمى سورة الإسراء، ومطلع السورة يقدم لنا قضايا كثيرة، ففيها حديث عن المُسرِي، وفيها خبر عن المُسرَى به، وفيها بيان لزمان الإسراء ووقته، وفيها حكاية عن طريق الإسراء:

* **أما الحديث عن المُسري سبحانه وتعالى:** فقد جاء بقوله: {سُبْحَانَ}، وكانت العرب قبل نـزول القرآن تستعمل عبارة "سبحان" للتعجب، فكلما رأت عجبًا قالت: سبحان.

أما المعنى الذي ذهب المفسرون إليه في قوله تبارك وتعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى} قالوا أسبح الله تسبيحًا وسبحانا.

ولما كانت آية الإسراء والمعراج آية خارقة للعادة، لأن النبي صلى الله عليه وسلم تحرك من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في ليلةٍ، في وقت كان السفر فيه من الحجاز إلى الشام يستغرق زمنًا طويلاً، لكن الله تبارك وتعالى الذي بيده الحركات والسكنات، وبيده الزمان والمكان، وبيده مقاليد الأمور، يفعل ما يشاء... إنما المشكلة هي في من غلب الحس على قلبه، واستولت المادة على كيانه، فنبهه سبحانه وتعالى بقوله: "**سُبْحَانَ**" أي: أفلا تتعجب أيها المادي من هذا الذي فعله الله سبحانه وتعالى بسيد أهل الروحانية والمادة؟

أما تسجد للذي له ملك السماوات والأرض؟

أما تخضع وأنت في جبروتك الذي لا يزيدك إلا ذلاًّ لمكون الكون وسيده؟

{الَّذِي أَسْرَى} أي: سافر بالنبي صلى الله عليه وسلم بالليل.

* **أما المُسرَى به:** سيدُنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي أكرمه الله سبحانه وتعالى بالإسراء فإنه: عبد الله.

فناسب بعد قوله: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى} وبعد هذه الإثارة التي أثار من خلالها تعجب المتعجبين، أن يذكر الوصف الذي ينبغي على الإنسان أن يتحقق به وهو: "العبودية".

والعبودية: تعني تبرُّؤ الإنسان من حوله وقوته، وتعني تمام الاستناد والتوكل على الله، وهي تنفي ملكية الإنسان الحقيقية لشيء من الأشياء، لأن كل الأشياء إنما هي ملك لله.

وهي تعني إعلان الإنسان استسلامه وعجزه وحاجته إلى إعانة ربه، قال تعالى:

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥].

ويكفي العبد سماعه من ربّه قوله: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} [الزمر: ٣٦] بلى.

هذا هو حال العبد مع ربّه.

إذًا: تحقَّق بالعبودية ولا يضيرُك بعدها أيها الإنسان أيّ شيء من الأشياء، لأن الله تبارك وتعالى يكفي عبده.

اُخرج عن وهم حولك وقوتك، وستجد بعدها سيدَك معينًا..

اُخرج عن الـــ: "أنا" وعن الأوصاف المنازعة للربوبية وستجد كفاية الكافي سبحانه.

{أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} بلى.

* **أما وقت الإسراء:** فقد جاء بعد قوله: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ} قوله: {لَيْلاً} والليل يُظهر القرآن الكريم شأنه في أمرين اثنين:

١ - الأمر الذي تحتاج الروح إليه:

لماذا يتهجد في الليل؟ ولماذا يقرأ القرآن في الليل؟

لأنه يحتاج إلى السكن والسكينة، فقد جعل الليل سكنًا فاغتنم مناسبة السكن لتسكن روحك في وقت السكن، ولا تسكن الروح إلا إلى ربها.

وقد دلّ الله حبيبه على سكينة الروح حين قال له: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ} أي: زيادة وارتقاءً وقربى، ففيه صلة الروح، {عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [الإسراء:٧٩] وشتّان بين المقام المذموم والمقام المحمود، فالمقام المذموم حيث يُقيم العبد في سخط ربه، والمقام المحمود حيث يقيم العبد في مرضات ربه.

فإذا حصلت سكينة الروح لا تستطيع أن تقوم مقامًا مذمومًا، قال تعالى: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ} [الحجرات: ٧] فإذا رأيت أنك تقوم مقامًا مذمومًا فتهجد في الليل، لأن سكينة الروح سوف تقودك إلى مقام محمود، وعندما تقوم في مقام مذموم فافهم أنك بحاجة إلى سكينة الروح تلك.

وقال سبحانه: {مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ} [آل عمران: ١١٣] الليل الذي تستمد فيه الروح تصفيتها وتزكيتها وارتقاءها...

ويشير القرآن إلى خصوصية الليل التي أشار إليها في موضع آخر وهي:

٢ - اللباس: أي الستر، وفيه كانت حركة المستضعفين، واقرؤوا قوله تعالى: {قَالُوا يَا لُوطُ} قالت الملائكة للوط عليه السلام، {إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ} [هود: ٨١] فالمستضعف الذي يترصده من يحارب الله ورسوله ينبهه إلى حركة الليل.

فهي خصوصية الستر التي تضعف مِن ترصّد المترصّدين.

* **أما طريق الإسراء:** فإنه الطريق إلى القدس الذي يتلهف المؤمنون إليه، والذي سار فيه أول من سار سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وسار إليه من بعده عمر، ومن بعده صلاح الدين... وسوف لن تقوم الساعة حتى يسير المسلمون إلى بيت المقدس، وما حجب المؤمنين عن القدس في وقت غطرسة أبناء صهيون إلاّ مرحلة زائلة، فلابد من يومٍ يوجد فيه عباد الله الذين لا يلتفتون إلاّ إلى مرضات سيدهم ولا يخافون في الله لومة لائم، ولابد من يوم يجتمع فيه أهل الإيمان على الطريق إلى القدس.

جاء في الحديث عن الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي يرويه أحمد والطبراني ويروي الترمذي بعضًا منه:

- (لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون كذابًا آخرهم الأعور الدجال).

ولماذا كان هذا الدجال الأعور؟ أما من رمزية في كونه الأعور؟

الإنسان لا قيمة له إلا ببصره وبصيرته، وعندما تتعطل بصيرة الإنسان ولا يبصر إلا بعين الحس وبحواسه المادية سيكون الأعور.

وهذه إشارة، فقد كثر في هذا الزمان الجنس الأعور، وهذا لا يلغي وجود شخصٍ سوف يظهر هو المسيح الدجال الأعور، لكن من التمهيد أن يَظهر جنسه، وجنسُه هو الجنس المادي الذي لا ينظر بعين بصيرته، ولا يشهد قدرة الله، ولا يشهد عظمة الله، ولا يرتعد أمام سلطان الله إنما يرتعد أمام سلطان المحسوس، ويغيب عن آيات الله الظاهرة لقلوب أهل الإيمان، وينفعل للحركة المادية التي تتحرك على ظاهر الأرض...

وقال: "الدجال" لأنه الكذاب الذي يخفي عن الناس حقائق الغيب.

- (وإنه سوف يظهر على الأرض كلها إلا الحرمين وبيت المقدس، وإنه يحضر المؤمنون بيت المقدس)

أي: يتجمع أهل الإيمان على وجه الأرض في بيت المقدس، فقد فتحوا الطريق إلى القدس، وأصبحت القدس مركزهم وعاصمتهم.

وكذب أبناء صهيون، فلن تكون القدس العاصمة الأبدية لليهود، بل هي العاصمة الأبدية لأهل الإيمان، هكذا أخبر الصادق المصدوق محمد صلى الله عليه وسلم.

ومهما رتّب المرتبون فإنهم يتوهمون أنه يمكنهم أن يصلوا يومًا من الأيام إلى تقاسمٍ للقدس، أو إلى حالة يكون فيها مزيجٌ من الكذب والصدق، أو مزيجٌ من الباطل والحق، وهذا والله لن يكون، فإما أن يبقى الباطل في القدس، وإما أن يأتي الحق ليدمغ الباطل وتعود القدس.

وهذا لا يكون بمجرد الدعاء، ولا بمجرد الشعارات، ولا بمجرد الصراخ... إنما يكون بوجود النوع الذي هو عبد الله: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ}.

تريد الطريق إلى القدس؟

الطريق إلى القدس لا يمكن أن يوصِل إليه أيّ شعار من شعارات القومية، ولا يمكن أن يوصل إليه أي شعار أو دعوى من دعاوي الحس.

الطريق إلى القدس هو العبدية، ولا طريق سوى ذلك، ولا يصل أهل الإيمان إلى القدس إلا بالعبدية، وحين يوجد هذا النوع الذي فيه العبدية الخالصة يتوجه إلى القدس ويفتح طريق القدس.

- **(وإنه يحضر المؤمنون بيت المقدس فيزلزلوا زلزالاً شديدًا، ثم يهلكه الله تبارك وتعالى)** أي الدجال ومن معه، **(حتى إن الشجرة لتنادي: يا مؤمن هذا يهودي تعال فاقتله)**.

ولقد أعجبني تنبيه بعض الباحثين في النسخة المعروفة بالكتاب المقدس إلى الفارق بين العبرانيين واليهود، حيث قال:

"اليهود – بحسب دراسته - لم يكن لهم وجود في زمن موسى، إنما حين ظهر عيسى عليه الصلاة والسلام كان الكتبة الذين اختلقوا وكتبوا، ومما كُتب (التلمود) الذي لا صلة له بالتوراة أبدًا التي أنــزلت على موسى عليه الصلاة والسلام"، فكان يفرق بين العبرانيين واليهود.

ثم أتستغربون أن تتحدث الشجرة؟

ألم يتحدث الصخر في زمن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فكان يقول له: السلام عليك يا رسول الله؟

ألم يتكلم ذلك الجذع حينما عدل عنه الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى المنبر الذي صنع له فحنّ وبكى؟

أتستغربون حديث الشجرة للمؤمن؟

حينما يصدُق حال الإيمان يصبح كل شيء مسخرًا له.

ورحم الله قول ابن عطاء: **"أَنْتَ مَعَ الأَكْوَانِ مَا لَمْ تَشْهَدِ الْمُكَوِّنَ، فَإِذَا شَهِدْتَهُ كَانَتِ الأَكْوَانُ مَعَكَ"** فالأكوان كلها تصير خادمة لك.

* وبعد أن ذكر الطريق إلى القدس في هذه الآية تحدث عن البلاد النورانية فقال: {الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ}

وبلادُ الشام كلها بلاد البركة، وقبّح الله من قسّمها فوجدت الأقطار والأقاليم:

قطر يسمى لبنان، وقطر يسمى الأردن، وقطر يسمى فلسطين، وقطر يسمى سوريا.. وكلُّها الشام المباركة التي حدودها من سيناء إلى بلاد ما بين النهرين.

الشام هي الأرض المباركة، وقد جاء في الحديث الذي أخرجه الحاكم في مستدركه، قال صلى الله عليه وسلم: **(لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين على من ناوأهم وهم كالإناء بين الأكلة)** يريد افتراسَهم كلُّ العالم، ألا نشهد هذا اليوم على أرض غزة؟ وهو نموذج، **(حتى يأتي أمر الله وهم كذلك، فقلنا: يا رسول الله، من هم؟ وأين هم؟ قال: بأكناف بيت المقدس)**.

وقال بعدها: {لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا} والله سبحانه وتعالى يكرم أحبابه بآيات مثبتة لليقين، فحينما يصدق إيمانك يكرمك الله بالآيات، حتى تثق أنه يكفيك ويعينك وينجدك.

{إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} وفي هذا وجهان:

أ- أن يكون المؤمن هو السميع البصير: وهكذا أعاد كثير من المفسرين الهاء في قوله تعالى **"إِنَّهُ"** على النبي صلى الله عليه وسلم فكان السميع البصير، فهو الذي سمع حسًّا ومعنًى، وأبصر حسًّا ومعنًى، فإذا كان المؤمنُ على هذا الوصف يكون مستعدًّا لرؤية الآيات.

ب- أن تعود الهاء في قوله "إِنَّهُ" على المسري سبحانه: وفي هذا تطمينٌ للقلوب، فهو سبحانه الذي يسمع خبرك، وهو الذي يبصر حالك، فإذا علمت أنه السميع البصير العليم بحالك، فعلمه بحالك يغنيك ويكفيك، لأنه يتولاك.

إنها آية واحدة، لكنها درس في الإيمان يستفيد منه أهل الإيمان، ويستفيد منه أهل الثقة بالله مهما تراكمت على أهل الإيمان الشدائد، ومهما اشتدت الأهوال، قال تعالى: {لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ} [آل عمران: ١٩٦-١٩٧].

رُدَّنا اللهم إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.